

كيف كسب أمازيغ الجزائر معركة الهوية ضد السلطة

منطقة القبائل معتادة على التمرد في وجه من يحاول قمعها بالقوة



صرخة في وجه القمع

بن بلة وهواري بومدين، جبهة القوى الاشتراكية التي تدافع عن الهوية الأمازيغية والديمقراطية. وشنّ تمرداً مسلحاً في منطقة القبائل، فقبعته السلطة بشدة واتهمت مقاتلي جبهة القوى الاشتراكية بـ"الانفصالية".



سعيد سعدي

الربيع الأسود هو شهادة ميلاد لشكل جديد من الاحتجاج

وبعد حادثة مقتل قرامح خلصت لجنة تحقيق وطنية إلى أن الدرك كان مسؤولاً عن بدء أعمال الشغب وقمعها. وجاء في تقرير اللجنة أن "العنف المسجل ضد المدنيين هو عنف حرب باستخدام ذخائر الحرب". وقرر عبدالعزيز بوتفليقة الذي انتخب قبل عامين من ذلك على أساس تعهده بإحلال السلام في بلد دمره تمرد إسلامي بتشكيل لجنة تحقيق وعهد برئاستها إلى الخبير القانوني محند إسعد، وهو من منطقة القبائل.

وغالبا ما عارضت منطقة القبائل السلطة المركزية وكانت في طليعة النضال من أجل الهوية الأمازيغية، لكنها كانت أيضا معادية للتطرف الإسلامي. وفشلت الجبهة الإسلامية للإنقاذ في الحصول على موطن قدم فيها عام 1990 عندما فازت بغالبية المجالس البلدية والولايتية في غالبية مناطق البلاد.

وعندما اندلعت الحرب الأهلية عام 1992 بقيت المنطقة بمنأى عنها في البداية، لكن مع تضاريسها الجبلية التي يصعب الوصول إليها، صارت معاقل لـ"أمراء" الجماعات الإسلامية المسلحة التي ضاعفت الاعتداءات ضد قوات الأمن خصوصا.

الأمازيغية "ينأير" التي توافق الـ12 من يناير من كل سنة ميلادية، عطلة وطنية رسمية في الجزائر "لتوطيد الوحدة الوطنية".

ومن المؤكد أن الاعتراف باللغة الأمازيغية كلغة رسمية لم يغير شيئا في الواقع ما عدا اللافتات الحكومية المكتوبة بها، ذلك لأن تدرسيها ظل اختياريا ما جعلها تحتل مرتبة ثانوية في البرامج الدراسية.

ولكن في حياة أمة في طريق البناء مثل الجزائر، من الضروري وجود "مراجع رمزية". ويقول سعدي إنه "من الأهمية أن نرى جبهة التحرير الوطني الحزب الوحيد سابقا الذي شوه سمعة قضية الهوية الأمازيغية لعقود، مضطرا للاعتراف بها".

والأمازيغية هي اللغة الرئيسية في التعاملات اليومية لسكان منطقة القبائل الكبرى في الجزائر، التي تضم محافظات عدة بشرق العاصمة. وينقسم هؤلاء السكان إلى مجموعات منفصلة جغرافيا وهي القبائل والشاوية في منطقة الأوراس والمزاب المجموعة الأمازيغية الوحيدة ذات المذهب الإباضي في منطقة غرداية.

كما يوجد الطوارق أقصى الجنوب والشناوة في منطقة شرشال غرب العاصمة، وهناك مجموعة بربرية أخرى قرب مدينة ندرومة على الحدود مع المغرب، وتتميز لغتها أو لهجتها بقرنها الكبير من الشلحة؛ وتعتبر من أمازيغ الشلوح (بربر) في المغرب.

تاريخ من النضال

في عام 1963، بعد عام على الاستقلال، أسس النائب الأمازيغي وأحد قادة حرب الاستقلال حسين آيت أحمد، المتمرد على سلطة أحمد

الحكم، لكنه مازال مستمرا رغم حظر التجمعات والمسيرات للمطالبة بتغيير جذري للنظام القائم منذ الاستقلال في 1962. وكان سعدي حين حصول الحادثة رئيسا للتجمع من أجل الثقافة والديمقراطية، الحزب المشارك في الائتلاف الحكومي. وقد سال الرئيس عبدالعزيز بوتفليقة الذي انتخب في 1999 حول وعده بإحلال السلام في بلد نخزته حرب أهلية دموية بين قوات الأمن والإسلاميين. وخاطبه قائلا "لا يمكننا الاستمرار في المشاركة في حكومة تطلق النار على أنبائها".

وفي ربيع 2002، استطاعت حركة العروش (تجمع قبائل المنطقة)، وهي منظمة موروثة من الأجداد أصبحت تقود الحركة الاحتجاجية، تحقيق مطلب رحيل غالبية كتاب الدرك الوطني من منطقة القبائل. وكذلك أصبحت اللغة الأمازيغية معترفا بها "كلغة وطنية" بقرار من بوتفليقة، رغم أنه معارض لأي فكرة تتحدث عن التعددية.

ففي 12 مارس 2002، أعلن بوتفليقة أنه قرر تضمين تعديل الدستور مادة تعترف بالأمازيغية كلغة وطنية وهي أي هدف لإلحاح الوطن والمصلحة الوطنية، وفي الثامن من أبريل، اعترف البرلمان بالأمازيغية كلغة وطنية ثانية إلى جانب اللغة العربية، تنويها لنضال استمر قرابة 40 عاما في منطقة القبائل.

وكان البرلمان قد صادق في السابع من فبراير 2016 بأغلبية ساحقة على مراجعة جديدة للدستور نصت على أن الأمازيغية هي الآن "لغة رسمية" بينما اللغة العربية "هي اللغة الوطنية والرسمية" وتظل اللغة الرسمية للدولة.

وفي منتصف ديسمبر 2017 تظاهر مئات من الطلاب لمدة أسبوع في عدة مدن، خاصة في منطقة القبائل، بعد رفض تعديل برلماني ينص على تعميم تدريس الأمازيغية في جميع المدارس الحكومية والخاصة بالجزائر مع إضفاء الطابع "الإجباري" على القرار. وبالمناسبة إلى سعدي الذي نشر مؤخرا الجزء الثاني من مذكراته، فإن قرار بوتفليقة "بإقرار الأمازيغية لغة وطنية جاء لتبرئة نفسه من المسؤولية عن جرائم الدولة المرتكبة في منطقة القبائل". ثم أصبحت الأمازيغية اللغة الرسمية الثانية في البلاد إلى جانب اللغة العربية بمناسبة تعديل الدستور في عام 2016.

أما التقدم الآخر في مسار النضال من أجل الاعتراف بالثقافة الأمازيغية فحدث في ديسمبر 2017، عندما أصدر بوتفليقة مرسوما يعترف برأس السنة

منذ أعمال الشغب الدامية، التي اندلعت في "الربيع الأسود" قبل عقدين من الزمن بمنطقة القبائل بشمال شرق الجزائر، استطاعت أقلية الأمازيغ انتزاع بعض المطالب المتعلقة بالهوية، واليوم تشارك بقوة في الحراك الشعبي حتى لا تتكرر المساة، وتتطلع إلى تحقيق مكاسب أكبر في ظل ما تعيشه البلاد من تغيير سياسي بعد الإطاحة بالنظام السابق.

الجزائر - بعد عامين من الإطاحة بنظام عبدالعزيز بوتفليقة، يستذكر سكان منطقة القبائل الجزائرية ما حصل قبل عقدين من الزمن، والتي كانت نقطة فارقة في طريق تحقيق مطالبهم بعد أن أعطت أعمال الشغب في ما يعرف بـ"الربيع الأسود" بُعدا سياسيا واجتماعيا لقضية الهوية الأمازيغية بجوهرها الثقافي طيلة العقود الأربعة الماضية.

وتعود هذه الذكرى إلى الـ18 من أبريل 2001 حين أصيب طالب في المرحلة الثانوية (18 عاما) ويدعى ماسينيسا قرامح بجروح خطيرة جراء إطلاق دركي النار عليه من سلاح كلاشنكوف في مقر الدرك الوطني في بني دوالة، وهي بلدة جبلية بالقرب من تيزي وزو، شرق العاصمة.

وكان قرامح أوقف بعد مشاجرة عادية بين الشباب والدرك، ولكنه توفي بعد يومين، بالتزامن مع ذكرى "الربيع الأمازيغي" عندما قامت السلطات بقمع المظاهرات المؤيدة للأمازيغية، فاندلعت أعمال شغب أشعلت المنطقة التي غداها السخط الاجتماعي، ولتنشتر في كل منطقة القبائل ثم مناطق أخرى من الشرق، ولاسيما في الأوراس.

العالم يشهد مخاضا جديدا، لهذا السبب نسال أنفسنا اليوم، ماذا لو كان أحمد الصالحين الهوني بيننا؟ ولكن، هل غادرنا أحمد الصالحين حقا؟ لا أعتقد. هو موجود بيننا بحكمته التي زرعه في نفوسنا، وبإيمانه بالمستقبل، الذي نؤمن به.

غالبا ما عارضت منطقة القبائل السلطة وناضلت من أجل الهوية الأمازيغية، لكنها كانت أيضا معادية للتطرف الإسلامي

ونزل سكان المدن والقرى إلى الشوارع للمطالبة بإغلاق جميع مقرات الدرك الوطني في المنطقة، وتحولت التظاهرات إلى مواجهات مع قوات الأمن التي أطلقت النار بالذخيرة الحية ما أسفر عن مقتل 126 شخصا وجرح أكثر من خمسة آلاف آخرين.

إثبات الهوية

يقول سعيد سعدي أحد رموز النضال من أجل الهوية الثقافية الأمازيغية، لوكالة الصحافة الفرنسية إنه "لا أحد كان يمكن أن يتخيل أن رجل درك يمكن أن يقتل بدم بارد شابا في كتنته". وأكد أن "رد فعل السكان كان غاضبا".

وأوضح سعدي الرئيس السابق لحزب التجمع من أجل الثقافة والديمقراطية (علماني) أن "الربيع الأسود" هو "شهادة ميلاد لشكل جديد من الاحتجاج في الجزائر أدى إلى احتلال الشارع".

ومنذ ذلك الحين، أصبحت المسيرات علامة على السخط الشعبي عندما يتعلق الأمر بنقل رسائل إلى السلطات. وبالتالي، فإن التورات الاجتماعية مثل مشكلة مياه الشرب والحصول على سكن، غالبا ما تؤدي إلى تظاهرات تتحول أحيانا إلى أعمال شغب. ويشير سعدي إلى أن الجزائر سجلت أكثر من عشرة آلاف حركة احتجاجية منذ بداية ثورات "الربيع العربي" في المغرب العربي والشرق الأوسط في 2011، مؤكدا أن "جميع المطالب تقريبا لا تمر عبر الطرق القانونية أبدا".

وتواصلت الاحتجاجات حتى اندلاع الحراك الشعبي في الـ22 من فبراير 2019، الذي أزاح بوتفليقة من

ماذا لو كان أحمد الصالحين الهوني بيننا؟



محمد الهوني كاتب ليبي

لطالما وفتت "العرب" مع القضايا العادلة ودافعت عن المبادئ والثوابت التي تبتنتها من خلال خطها التحريري، ومن خلال الافتتاحيات التي كان الوالد يدونها بشكل يومي، في دفاع مستميت عن القضايا الحيوية للأمة. واستمر على ذلك الحال إلى أن توفاه الله في تونس التي أحبها وتعلق بها وكان عاشقا للسير في شوارعها والصلاة في مساجدها، ودفن في ليبيا التي كان من أبنائها الصادقين ورجالها المخلصين، ومن الأوفياء لها وهو على أرضها أو مقيما خارجها.

قد تكون شهادتنا مجروحة، ولكن نجاح "العرب" لا يحتاج إلى شهادة، نجاحها يتحدث عن نفسه؛ تحتضن "العرب" اليوم مواقع إلكترونية بعدة لغات، ومطبوعات متميزة ينتظرها قراؤها. رغم الأزمة المالية التي يمر بها العالم، وتمرر بها صناعة الإعلام بالتدريج.

كلما اشتدت من حولها الصعوبات زادت عنادا، وزاد القائمون عليها إصرارا على النجاح. وهذه أهم شيمته ورفناها عن عميد مؤسسة "العرب".

ولا نبالغ إن قلنا إن "العرب" اليوم باتت تختزن على نفسها من قصة نجاحها.

لطالما واجه أحمد الصالحين المصاعب بروح قتالية، ولطالما كانت المصاعب كثيرة من حوله.

المصاعب اليوم كثيرة؛ تحديات التكنولوجيا الرقمية متمثلة في منصات التواصل الاجتماعي، وتحديات كورونا التي شغلت العالم، هذا بالطبع إلى جانب التحديات التي تواجهها الدول العربية اقتصاديا وسياسيا وأمنيا.

العالم يشهد مخاضا جديدا، لهذا السبب نسال أنفسنا اليوم، ماذا لو كان أحمد الصالحين الهوني بيننا؟ ولكن، هل غادرنا أحمد الصالحين حقا؟ لا أعتقد. هو موجود بيننا بحكمته التي زرعه في نفوسنا، وبإيمانه بالمستقبل، الذي نؤمن به.

لم يكن الوالد رجل إعلام وسياسة فقط. كان مسلما بروح صوفية هادئة، ميلا إلى الحب والسكينة وسلام النفس، وكان أبيا ودودا طيبا ورب أسرة حنوننا وحائنا، وكراما يمد يده للجميع بأصالة ابن البادية المجدول على النقاء والعتاء، وقد اتسعت أسرته إلى كل العالم العربي من خلال أبناء ليسوا من صلبه، ولكنه احتضنهم في "العرب" فوجدوا فيه نعم الأب والأخ الأكبر والصدوق والرفيق والسند والمدد وقت اللزوم. رحم الله الوالد أحمد الصالحين وطيب ثراه، وأسكنه منزلة الشهداء والمصليين وال بيت الطاهرين ممن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.



الذكرى الخامسة عشر لرحيل الوالد (18 أبريل 2006) وإن شكلت لنا نحن أبناءه ومريديه وعلامته ذكرى حزينة، إلا أنها أيضا فرصة لمراجعة النفس ومراجعة كل ما يجري من حولنا.

في مثل هذا اليوم من كل عام نطرح نفس السؤال: ماذا لو كان بيننا اليوم الإعلامي أحمد الصالحين الهوني؟ في حياته تعامل مع تحديات كبيرة واجهت ليبيا والدول العربية بحكمة منقطعة النظير. وهذا ليس غريبا عن رجل تحمل مسؤولية الإعلام في بلده، وكان الإعلام شاعله الأول والأخير. الخدمات التي قدمها للإعلام والإعلاميين أكثر من أن تعد أو يتم عرضها في هذه الكلمة المختصرة. ومؤسسة "العرب" اليوم واحدة من مآثره التي نمت وتطورت على أيدي تلامذته ومريديه.



الخدمات التي قدمها أحمد

الصالحين الهوني للإعلام

والإعلاميين أكثر من أن تعد

أو يتم عرضها في كلمات

مقتضية. ومؤسسة "العرب"

اليوم واحدة من مآثره التي نمت

وتطورت على أيدي تلامذته

ومريديه

صادف أن تزامن إطلاق صحيفة "العرب" مع بداية ظهور التيارات المتشعبة والتكفيرية، ومع التحولات التي كانت قد بدأت تعصف بالمنطقة، كالثورة الإيرانية وحرب أفغانستان، والحرب العراقية - الإيرانية، كانت بوصلة الوالد واضحة، وكان موقف "العرب" معلنا من خلال تحولها إلى جامعة للأقلام العربية في لندن، التي كانت تجمّع أئمة الطلبة المتبعين، وبالطاعات الإعلامية من مختلف الدول العربية، كالعراق، ومصر، وسوريا، والسودان، والجزائر، والمغرب، وفلسطين، ولبنان، ودول الخليج العربي.

كان الحلم كبيرا، وكان الوالد صاحب حلم ومشروع كبير. سرعان ما تحول الحلم إلى مشروع على الأرض، وإلى مصدر للخبر اليقين، ومنصة للاصوات الحرة والمتخلعة لمستقبل أفضل من خلال ما تحبّره من تحاليل وتعاليل ورؤى ونصوص أدبية وزوايا فكرية.